الحمد للّه المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، خلق الخلق بعلمه، وقدر لهم أقدارا، وضرب لهم آجالا لا يستأخرون عنها ساعة ولا يستقدمون، قدر مقادير الخلائق، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، علم ما كان وما سيكون، وكل شيء عنده بمقدار، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله، وخيرته من خلقه، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان ما تعاقب الجديدان: الليل والنهار. أما بعد:

فحديثنا هذه الأمسية يتناول موضوعا أحسبه من الموضوعات التي نحتاج إليها جميعا وهو:

(العبادة وآثارها السلوكية)

وسيدور الحديث حول المحاور التالية:

١. حقائق بين يدي الموضوع.
٢. كيف تؤثر العبادات على سلوك الناس.
٣. العوامل التي تبعث الحياة على العبادات.
٤. توقعات المحاضرة.

حقائق بين يدي الموضوع:

١- العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه اللّه ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

فالعبادة في الإسلام شاملة لكل أمور الدين والدنيا ، وقد قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا اللّه ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »[1] وعبادة اللّه تتطلب النية الصادقة والإخلاص في العمل والاستقامة .

٢- ويمكن تلخيص أنواع العبادات فيما يلي :

- عبادات قلبية عقلية وفكرية عقدية، عروتها الوثقى التأمل في الآيات التنزيلية والآيات الكونية تأملا يؤدي إلى تقوية الإيمان وتعميقه واليقين في

---

[1] أخرجه البخاري ومسلم.

عظمة اللّه وقدرته . قال اللّه تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ⋆ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران : ١٩٠-١٩١) .

- عبادات يؤديها المرء بجسده كالصلاة والوضوء والطهارة والصوم .
- عبادات يؤديها المرء بماله كالزكاة والصدقات .
- عبادات بدنية ومالية كالجهاد والحج .
- عبادات هي عبارة عن أعمال بشرية عادية كالزراعة والتجارة والأعمال الوظيفية إلا أنها يجب أن يقصد بها وجه اللّه تعالى .

٣- المهمة التي خلق اللّه البشر من أجلها هي عبادته وحده لا شريك له ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات : ٥٦]

٤- إن للّه جل وعلا مستغن عن الخلق كلهم ، ولا حاجة له تبارك وتعالى لعبادتهم كما جاء في الحديث القدسي : (لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً) [1] وقد قال اللّه تبارك وتعالى : ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ المُحْسِنِينَ ﴾ [الحج : ٣٧]

٥- أن ثمرة العبادة حاصلة للعباد أولاً وأخيراً ، ولهذا قال العلماء : إن مبنى الشريعة على تحصيل مصالح العباد في الدنيا والآخرة، ودرء المفاسد عنهم في الدنيا والآخرة.

فعبادة اللّه جل وعلا هي المنهج الذي يحفظ لهذا الكون انتظامه وسيره دونما تخبط في أي ناحية من نواحي الحياة ، وعلى أي مستوى من المستويات ، واختلال هذه العبادة اختلال لنظام هذا الكون ، وبالتالي دخوله في دهاليز الضلال والانحطاط والفساد ، على جميع الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها .

٦-إن أداء العبادة كما أمر اللّه بها هو سبيل سعادة البشرية بأكملها: فالعبادة هي الزمام الذي يكبح جماح النفس البشرية ، أن تسقط في أوحال

---

(1) أخرجه البخاري

شهواتها، وهي السبيل الذي يحجز البشرية عن التمرد على شرع اللّه تعالى، فالخلل في أداء العبادة مؤذن بالخلل في انتظام الحياة البشرية من هذه الناحية.

٧- إنه ليس المقصود من العبادة مجرد الحركات الظاهرة التي تمارسها الجوارح دون أن تؤثر في الباطن .

وإنما المقصود مع ذلك : عمل القلب ، من الإخبات والتذلل والخضوع بين يدي اللّه عز وجل ، وذلك روح العبادة ولبها .

إن الذي يؤدي العبادة أي عبادة كانت ولم يقم في قلبه أثناء ذلك مقام العبودية للّه عز وجل ، فكأنه ما أدى تلك العبادة وبمعنى آخر فقد أدى صورة العبادة لا حقيقتها .

ولذلك يقول الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس للّه حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) [1] .

ومع استمرار الغفلة ، وشرود القلب في مواطن العبادة تصبح العبادة مجرد حركات ظاهرة ، ليس لها أي أثر على قلب صاحبها ، ومن ثم : ليس لها أي أثر على تصرفاته ، فتصبح العبادة عادة .

كيف تؤثر العبادات على سلوك الناس:؟

لنتساءل:

- لماذا نرى عبادا للّه صامدين أمام تحديات القهر والتسلط والقوى المضادة،إذا قيل لهم {إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم} كان جوبهم {حسبنا اللّه ونعم الوكيل} بينما نرى آخرين يتراجعون عند أول باب من الابتلاء؟

- ولماذا نرى من الناس من يتحدى السحرة والمشعوذين والطواغيت، ومن يصبر أمام مغريات المال والجاه ويأبى أن تمتد يده إلى الحرام مهما اشتد به الفقر، وآخر يمسك لسانه عن الكذب والغيبة والنميمة وغيرها من آفات اللسان، في حين نرى آخرين لا يصمدون أمام أقل المغريات ولا يصبرون عن الخوض في ما لا علم لهم به.

---

[1] أخرجه البخاري .

- وأيكم لم يشاهد من إذا سمع الآذان خف واستعد لتلبية النداء، ومن إذا قال المؤذن: "الصلاة خير من النوم" تكاسل وعاد إلى نومه، أو قام قومة من يتخبطه الشيطان من المس؟
- بل إننا كثيرا ما نرى من يستصعب تطبيق السنة والالتزام بها في تصرفاته وفي سمته الخارجي ويتعلل بالأعذار الهزيلة، وشخصا آخر ماض في حاله لا يأبه لما يقال فلا نملك إلا أن نقول :لماذا؟ ولماذا؟ إنها أسئلة كثيرة والجواب عنها بكلمة واحدة هي أن العبادة أثرت في أولئك ولم تؤثر في هولاء وأمثالهم، والتفصيل أن نتأمل في آثار العبادة على السلوك.

لقد ذكر الشارع بعض الآثار التي تتركها العبادات على سلوك العابد،يمكن من خلالها سرد كم هائل من الآثار المتولدة عن كثير من العبادات كقوله تعالى عن الصلاة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .. ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

وكما قال عن الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لعلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣]

ويقول عليه الصلاة والسلام: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس للّه حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) .[١]

ويقول : (صوم شهر الصيام وثلاثة أيام من كل شهر يذهبن وحر الصدر) [٢] أي: غله وحقده.

وبناء عليه نستطيع أن نضرب بعض الأمثلة لجملة من العبادات مع ذكر شيء من آثارها:

العبادة	آثارها
الإيمان (العقيدة الصحيحة) وإذا خالطت بشاشته القلوب رأيت العجب، وذلك يكون بتحقيق التوحيد وإسلام القلب والجوارح للّه رب العالمين.	١- قوة التضحية في سبيل اللّه. ٢- تقديم محبة اللّه ورسوله على سواهما

[١] تقدم تخريه

[٢] أخرجه البزار وأحمد في المسند ، وابن حبان ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب : ج١ص٤٢٩

	٣- الصبر على البلاء. ٤- صدق التوكل على اللّه وعدم الخوف من غير اللّه. ٥- الصدق مع اللّه ومع نفسه.
الصلاة:وذلك بأن تؤدى في وقتها بشروطها وأركانها طبق الهدي النبوي تامة غير منقوصة.مع ما تيسر من النوافل والأذكار، مع استمرار المحافظة عليها.	١- الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، وهو تعبير شامل لجميع المظالم اللازمة والمتعدية. ٢- الانضباط بالمواعيد المضروبة. ٣- القدرة على برمجة الزمن.
الصيام:أعني صيام شهر رمضان مع ما تيسر من صوم التطوع.	١- طاعة اللّه في الأوامر والنواهي. ٢- التحرر من رق الشهوات. ٣- قوة الإرادة. ٤- مراقبة اللّه في السر والعلن. ٥- الشعور بالآخرين وتلبية حاجاتهم. ٦- التخفيف من تأثير الغرائز.
الزكاة	١- تربية النفس على البذل وتطهيرها من البخل. ٢- القضاء على الحقد والحسد. ٣- السعي في سبيل الكسب الحلال.

	٤- تطهير المال مما قد يدخله من المشتبهات. ٥- ضمان التكافل الاجتماعي. ٦- القضاء على الفقر أو التقليل منه.
الحج	١- تربية النفس على الإنفاق في سبيل اللّه. ٢- تربيتها على التضحية بالجسم. ٣- التربية على مشاق السفر ٤- شعور المسلم بالانتماء إلى أمة عظيمة لها رسالة عالمية. ٥- التدريب على هندسة التعامل مع الآخر. ٦- التدريب على ترك النواهي.

العوامل التي تبعث الحياة في العبادات:

وبعد هذه الجولة القصيرة ينبغي أن نلفت الأنظار إلى أن هذه الآثار المفترض ترتبها على تلكم العبادات كثيرا ما نراها متخلفة عن أناس يؤدون هذه العبادات .. فما الذي يفسر لنا ما نراه من سلوك بعض الناس المخالف لشرع اللّه في المعاملة وفي الخُلُق مع أنهم من المصلين ومن رواد المساجد ، بل ربما من قارئي القرآن ومن صائمي الهواجر؟ **الجواب**: أن مجرد أداء العبادة دونما قيام بما تستلزمه لا يمكن أن تنتج الأثر المأمول، لذلك يلاحظ الفرق الكبير بين من يصلي ثم ينصرف من صلاته كما دخل فيها ، وبين من إذا وقف استشعر أنه واقف بين يدي اللّه ، فاستحضر نية التقرب إلى اللّه عز وجل عند شروعه في

الصلاة ، وقام وفي قلبه مقام العبودية للّه عز وجل ، وشعر بالانكسار بين يدي العزيز الجبار ، ثم إذا قرأ القرآن أو تلاه أو ذكر الأذكار واطأ قلبه لسانه ، فإذا قال مثلاً : ﴿اهدنا الصراط المستقيم ﴾، فهو قد سأل اللّه أن يهديه الصراط المستقيم ، وهكذا حتى ينصرف من صلاته ، انظر إلى حال هذا الرجل وحال من دخل في صلاته وقلبه في مكان آخر

فالقرآن والأذكار تتردد على لسانه وعلى حركات يده أو سبحته! دون أن تتجاوزه إلى عقله أو فكره، وانظر إلى من إذا انصرف من صلاته قال : (استغفر اللّه) ثلاث مرات وقلبه يطلب العفو والمغفرة من اللّه على ما حصل من تقصيره في هذه العبادة ،وانشغال قلبه بغير اللّه فيها .

ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام : (إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته تسعها ، ثمنها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها)[1] .

ولذا حرص الشارع على التنويع في الأذكار وفي مواضع القراءة عند الصلاة لكي لا تتحول العبادة إلى عادة.

ويمكن أن نقرر أن هناك ثلاثة أمور كلف اللّه العبد أن يسعى في تحصيلها وهي محور الاستفادة سلوكيا من العبادات: وهي/ التقوى- والإخلاص- والإحسان.

التقوى: قال تعالى:﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ﴾ [الحج : ٣٧]

وقال تعالى: {وإياي فاتقون} وقال تعالى :{وتزودوا فإن خير الزاد التقوى}

وقال تعالى: {ولباس التقوى ذلك خير} وقال تعالى:{واتقوا اللّه الذي إليه تحشرون}

الإخلاص: قال تعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا اللّه مخلصين له الدين} وقال تعالى: {وادعوه مخلصين له الدين} وقال تعالى: {فادعوا اللّه مخلصين له الدين} وقال تعالى: {فاعبد اللّه مخلصا له الدين} وقال تعالى:{قل إني أمرت أن أعبد اللّه مخلصا له الدين} وقال تعالى: {قل اللّه أعبد مخلصا له ديني}

---

[1] انظر صحيح الجامع ، ح١٦٢٢ .

الإحسان: قال تعالى: ﴿وأحسنوا إن اللّه يحب المحسنين﴾ وقال تعالى: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس واللّه يحب المحسنين﴾ وقال تعالى: ﴿إن رحمة اللّه قريب من المحسنين﴾ وقال تعالى:﴿إن اللّه لا يضيع أجر المحسنين﴾ وقال تعالى:﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين﴾ وعرف النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم الإحسان في كلمة جامعة فقال:"أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[1]

إن هذه الأمور الثلاثة مقترنة بعضها ببعض وهي صفات ملازمة للعبادات ذوات الأثر على السلوك يتصف بها العبد لكي يتأثر بما يقوم به من العبادات. وليس من العبادات عبادة تكون وسيلة إلى اكتساب هذه الصفات ما عدا العبادات البعيدة بذاتها عن الرياء ،كالصوم فإنه وسيلة إلى التقوى ، وهي أصعب الثلاثة، يليها الإحسان فالإخلاص. قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لعلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ والعبادة إذا وصلت إلى هذه المرتبة أنتجت أمورا هي غاية ما يتمناه العقلاء، مثل:

١- الخوف من اللّه وهوان الدنيا على العبد، فنرى مثل قصة ماعز، والمرأة الجهنية رضي اللّه عنهما، كما جاء في الصحيحين.

٢- الورع ، فنرى مثل حال ذلك التاجر الذي أقفل دكانه ثلاثة أيام للبحث عن رجل اشترى منه شيئا وترك عنده درهما ونصف درهم على سبيل الخطإ.

٣- مراقبة اللّه، فنرى حالا كحال المرأة التي أصيبت بالسنين فلجأت إلى ابن عمها الذي كان يحبها، فقالت له-لما أراد بها سوء- : اتق اللّه ولا تفض الخاتم إلا بحقها.

٤- الإيثار، فنرى صفات المؤمن التي ذكرها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حين قال:"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" [2]

---

[1] متفق عليه، وهو طرف من حديث جبريل المشهور.

[2] متفق عليه.

توقعات المحاضرة:

١- أن يخرج المرء وهو يشعر بالتقصير في حق اللّه وحق خلقه عليه.

٢- أن يكون ذلك حافزا له على الاعتناء بنفسه تربية وتهذيبا، وبإخوانه تعاونا على البر والتقوى.

٣- أن يخرج وهو أقوى في مواجهة التحديات والصبر عن المغريات.

٤- أن يخرج وقد ازداد يقينا بأن الإسلام وحده هو الكفيل بإصلاح الفرد والمجتمع.

هذا: واللّه نسأل أن يهيئ لنا من أمرنا رشدا، اللهم احفظ علينا ديننا وثبتنا عليه إلى الممات فإنه عصمة أمرنا اللهم أصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير واجعل الموت راحة لنا من كل شر، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين.

وصلى اللّه وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(امباكي باوول- في ٣/٨/٢٠٠٥م/ الدورة الشرعية)